من ذكريات الأسفار

مغامرة دجال

بقلم : الاستاذ محمود الساعدي

لقد انتهى بي المطاف الى مدينة الحي وهي اجمل مدن الغراف وأقدمها .

دخلتها عصراً ، وقصدت فندق المدينة الوحيد فأودعت فيه حقيبتي ، ومن ثم خرجت منه الى مقهى قريب من الفندق والقيت بجسمي على كرسي خشبي كان بمعزل من الناس وانا تعب من مشاق الطريق .

ولا أدري كيف توالت علي الهموم في تلك الساعة حتى جعلتني أطيل الفكر واحرق لفافة تلو اخرى وكان على بعد عدة كراس مني رجل ربع القامة ، اسمر اللون ، تجاوز العقد الخامس من عمره ؛ يبدو على أساريره وجبهه ذكاء متوقد واحساس مرهف

ولم تخف على هذا الرجل حالتي . وبغتة تحول من كرسيه ودنا مني خيالي وجلس بجواري ثم خاطبني قائلا :

أنجفي انت ؟

نعم . وما ذا تريد ، وخفت ان يكون عيناً للحكومة جاء يتصيد مني الأخبار .. ولم تفته هذه الخاطرة ايضاً . قال : اخي انا لست من اهل هذا الحي وانما موطني الكوت واسمي محمد من اسرة آل ... المعروفة في الكوت . وانما قصدتك وطرحت عليك هذا السؤال لأجعل منه فاتحة الحديث بيننا عسى ان اسطيع تخفيف عما بك ، لأني ازاك غارقاً في بحر من التفكير ، كما اني اعتقد ان الباعث الوحيد الى هذا التفكير هو ما تسميه بالسفر . ثم اردف قائلا :

والآن دعني اذكر لك صفحة من تأريخ حياتي (وقد قضيتها في الأسفار) لتتخذ لك منها سلوى ، واخذ يقص علي هذه القصة التي بين أيديكم .

قصة

قال : على اثر غزو الجيوش الانكليزية لأرض العراق سنة ١٩١٥ م . اعلن الاتراك النفير العام ، وصاروا يقبضون على كل من يستطيع حمل السلاح ويرسلون به الى الشعيبة ، وكنت ممن القي القبض عليهم وارسل .

وصلت الشعيبة وشهدت حربها الدامية التي انتهت بفشل الاتراك وانتصار الجيوش المحتلة ، وما كادت تنتهي آخر معركة في الشعيبة حتى إنسللت من المعسكر وعبرت شط العرب ، ورحت انتقل بين قبائل عربستان العربيـة وانا اظهر للناس في اثناء الطريق باني سيد علوي حتى وصلت مدينة دزفول وانا مثقل الجيب بنتيجة هذا الادعاء الكاذب .

ومنها لابد لي ان اجتاز جبال بشت كوه « موطن القبائل الكردية من سكوند وبيروند » حتى اصل الى الكوت وما ادري ما ذا الاقي في هذا الطريق الجبلي الوعر . وبعد استراحة ثلاثة ايام في دزفول ، تركتها الى الجبـال ـ جبال بشت كوه ـ وعلي جبة فضفاضة وعمة سوداء كبيرة ، ورحت اعلو جبلاً واهبط وادياً حتى صرت في اقرب نقطة من الكوت انحدرت منها اليه ؛ ولما قاربته علمت ان السلطة فيه لاتزال بيد الاتراك ، فعدلت عنه الى الغراف .

وهناك لابد من تغيير ملابسي الدينيـة والظهور بمظهر آخر . خلعت الجبة الفضفاضة واستبدلت العمة بالكوفية والعقـال ، ثم عبرت دجلة ورحت انتقل بين قبـائل ربيعة والمنتفك ، حتى بعدت عن الكوت وآنست من نفسي اني صرت في مأمن من الاتراك القيت عصا الترحال في حي كبير من احياء قبيلة بني ركاب (اكبر قبائل الغراف وامنعها في ذلك اليوم) وبنيت لي كوخاً من قصب وحصر واتخذته دار سكنى ودار عمل في الوقت نفسه .

كنت انتمي في هذه المرة الى طائفة الغجر (الكاولية) الموجودين بكثرة في منطقة الغراف والمنبثين بين قبائله ، واتخذت مهنة تبييض الأواني النحاسية (وهي من اختصاص هـــذه الطائفة) مهنة لي .

وسمعت النساء [نساء القبيلة] فجاءت تحمل المراجل والصحون الى هذا (الرباب) الجديد .

بقيت على هذه الحالة حوالي خمسة شهور حتى بلغني سقوط الكوت بيد الانكليز وانسحاب الاتراك عنها ، قمت الى حاجيات بيتي الصغير فبعتها وعدت اليه تواً .

ولم يمض على دخولي مدينة الكوت شهران ، إذ بالجيوش التركية تعود اليها من جديد وتحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، وشاءت الاقدار ان اذوق طعم هذا الحصار ، ولا تسلني كيف كان ؟! فيكفيك ما كتبه عنه آمر الفرقة المحاصرة (تاوزند) في مذكراته .

استسلمت لقضاء الله الذي لا يرد وبقيت مع من بقي اقاسي مرارة هذا الحصار البغيض مدة خمسة شهور تقريباً . واخيراً استسلمت الفرقة المحاصرة وتقدمت القوات التركية فدخلت المدينة واخذت تقبض على من تشاء .

وحاولت الفرار في هذه المرة فلم افلح فقد قبض عليّ والحقت بالجيش من جديد .

ثم شاء للاتراك ان ينسحبوا من الكوت (وانا معهم طبعاً) الى سلمان باك ثم الى بغداد فتكريت فالموصل واخيراً الى القسطنطينية حيث سرحت الجيوش فيها .

وهناك خليت وشأني ، ولكن من اين تتأتى لي العودة الى العراق والفوضى ضاربة اطنابها في كل مكان ، فرأيت من الصالح ان ابقى مدة في القسطنطينية التمس فيها وجه الحيلة ريثما تعود المياه الى مجاريها ويستتب الأمن . ومضيت ابحث من وقتي عن عمل استعين به على الاقامة حتى يرى الله في رأيه واخيراً وجدت ضالتي المنشودة ، وجدتها عند شيخ وقور من رجال الدين الصلحاء يعرف بالشيخ مصطفى . قد التزم بصلاة الجماعة في مسجد السلطان احمد (اعظم جامع في الاستانة بعد جامع ايا صوفيا) فالزمت نفسي بالصلاة خلفه وبالأذان « وكنت حسن الصوت رقيقه » واخذت اتقرب الى الشيخ شيئاً فشيئاً فاقضي له لوازمه واحدثه عن نفسي وعن العراق ؛ فلما آنس مني ذلك قربني من مجلسه واعتمد علي في مهامه ، وبالاخير سعى في تزويجي من ابنته الحسناء .

ثم استرسل قائلا : وفي الحقيقة إنها لم تكن إبنة الشيخ عن صلبه وانما هي فتاة آثورية قتل اهلوها [وهم من اصحاب الأطيان] في حادثة نكبة الآثوريين التي قام بها الاتراك عقيب حرب ١٩١٤ وقد سبق لهذا الشيخ ان استوهبها منهم وتبناها وراح يحافظ على ثروتها الطائلة .

وأراني الآن لست بحاجة لأن اذكر لك حياتي الزوجية فيكفيك ان تعرف منها بأنا كنا مرحين لاهين ، وكنا نامح هذا المرح اونجد هذا اللهو في كل شيء ، في شواطيء البسفور وفي اشعة المصابيح المتكسرة على امواج المضايق ، وفي كل شيء تقع عليه العين من مناظر الطبيعة الرائعة .

وبعد مرور اكثر من عامين على اقتراني بهذه الفتاة ، وبعد ان رزقت منها ولدين ، هاجت بي الذكرى الى العراق وتشوقت الى مشاهدة امي العجوز ، واخذ داعي هذا الشوق يستحثني على الرحيل . فطويت الشغف بالاستانة العالق بشغاف قلبي واودعته في زوايا النسيان وصممت على العودة الى العراق وانا واثق بأن الفوضى والاضطرابات التي نشأت عن حرب عام ٩١٤ لا تزال مخيمه في كل البقاع التي سأجتازها اليه .

لهذا اخذت افكر في الأمر ورحت ابحث عن حيلة استعين بها على الوصول اليه ، فلم اجد احسن من الدروشة ، ورحت من وقتي فهيأت جميع لوازمها من كشكول وقدوم ومسبحة طويلة وماشاكل ذلك . ثم جئت الى زوجتي واطلعتها على عزمي الأخير وعرضت عليها فيما إذا كانت ترغب في الرواح معي . فأبت .

تركت القسطنطينية الى العراق ، وكنت اشعر يوم خرجت منها بأني سأذلل كل الصعوبات التي تعتور الطريق في الوصول اليه .

وصلت حيدرباشا(١) وجبت طرقاتها واسواقها وقدومي على كتفي وكشكولي معلق بيدي وانا اترنم بمدح سيد الكون محمد (ص) وكان المارة واصحاب الحوانيت يرمون في كشكولي النقود على اختلاف قيمها . واردت ان اري الناس بأني لست من عشاق المادة ، فقمت اوزع ماقل ثمنه من النقود على الفقراء والمعوزين الذين اجدهم مكدسين على ابواب الجوامع أو اصادفهم على الطريق . وكنت احتفظ بذات الاقيام العالية من النقود من حيث يخفى على الغير . وقد نجم عن هذه العملية او هذه الحيلة المرتجلة ، ان عظمت في اعين الناس واخذوا يكبرونني ويزيدون لي في العطاء .

تركت حيدر باشا ورحت متوغلاً في بلاد الأناضول

(١) تقع في الجانب الشرقي من البسفور مقابل الاستانة .